تجارب الديمقراطية العربية

ماذا فعل الغربيون طوال المدة التي تسلّموا فيها مقدّراتنا لنشر الديموقراطية الصحيحة ، ديموقراطيتهم هم التي يمارسونها في بلادهم ؟

بقلم محمد النقاش

عندما يقول بعض ساسة الغرب او بعض صحفييهم « ان إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تتمتع في الشرق الأوسط بحكم ديموقراطي قويم » فهم يحسبون انهم اكتشفوا حقيقة وقرروا واقعاً ، وغسلوا أيديهم من كل تبعة في الموضوع . ولو فكروا قليلاً لعرفوا ان هذه المفخرة الاسرائيلية التي تقابلها مأساة عربية من حيث أساليب الحكم ، وبصرف النظر عن اغتصاب ارض وتشريد بشر ، هي حكم على الغربيين انفسهم بانفسهم ، وشهادة للتاريخ بتقصيرهم وجرائرهم .

ليس يكفي ان حكام اسرائيل – بل اكثرية شعبها – اتوا من بلدان ارقى من بلدان الشرق الأوسط ، وتمرس الكثيرون منهم بالديموقراطية البرلمانية فادركوا مقتضياتها وحذقوا اساليبها ، فجاء الغربيون وهم يغرسون هذه الدولة ، يتعهدونها بكل اسباب العناية والمداراة ويضربون حولها سياجاً يحميها من كل الاشواك : آزروها في منظمة الامم المتحدة ، وفرضوا من اجلها الهدنة الاولى ، وامدوها بالسلاح بين الهدنتين ، واغدقوا عليها ملايين الدولارات لتنتصر على مصاعبها الاقتصادية ، واتحفوها بالبيان الثلاثي يضمن سلامة حدودها ، واعفوها من مقررات الامم المتحدة التي اتخذت عام ١٩٤٨ فاراحوها من عبء اللاجئين – من حقوقهم في دورهم وممتلكاتهم وتعويضاتهم – ومن تعديل الحدود . . . ولم يربطوها بمعاهدات تحد من استقلالها وتقتطع من سيادتها وتخلق في نفوس ابنائها شعوراً بمركب النقص ، يسبب لهم القلق الدائم .

واحتل الغربيون بعض الاقطار العربية منذ عشرات السنين ، وورثوا بعضها عن السلطنة العثمانية ، مغلوبتهم في الحرب العالمية الاولى . دخلوا هذه الاقطار ذات الحضارة العريقة ، والسواد الاعظم من سكانها يخبط في دياجير الجهل ، ويخضع الجميع لحكم استبدادي متسلسل ، يبدأ بالسلطان ويمتد عبر الباشوات والمشايخ والاقطاعيين . ولسنا ننكر جانباً من الخير حمله الغربيون الى هذه البلدان المحتلة ، جانباً جعل للاستعمار نصيباً من اسمه الصحيح المشتق من العمران . . . كان عليهم ان يحسنوا احوال البيئة التي يحيا فيها حكامهم وجنودهم وان ينموا موارد تلك البلدان ليزداد كسبهم منها ، فكان لا بد من نشر خيرات حضارتهم المادية في التعمير والترميم ، وكان لابد من فتح مدارس لاولادهم واولاد اصدقائهم والمتعاونين معهم من اهل البلاد . وكل هذا وما شاكله أفاد البلاد بطريقة ربما كانت غير مقصودة .

ولنحصر الكلام في تبعات الغربيين تجاه اساليب الحكم التي سادت الدول العربية في الشرق الادنى بعد ان ناضل ابناء تلك الدول نضالاً طويلاً وحصلوا على انواع مختلفة من الاستقلال . ماذا فعل الغربيون طوال المدة التي تسلموا فيها مقدراتنا لنشر الديموقراطية الصحيحة ، ديموقراطيتهم هم التي يمارسونها في بلادهم ؟ لقد تعاونوا دائما مع الباشوات ، ومن فتح حكم الباشاوات وخلقوا احيانا طبقة جديدة من الباشوات ، واقاموا او شجعوا على قيام مظاهر وواجهات للديموقراطية البرلمانية فجاءت الدساتير ملغومة دائما بسلطة ديكتاتورية لرئيس الدولة الذي كان يفرض فيه الولاء لهم والتعاون مع مندوبيهم السامين . وهكذا نشأت عندنا تقاليد ديموقراطية عجيبة : رئيس الدولة يعيّن الحكومة التي يريد ، والحكومة بدورها تجري الانتخابات العامة وتأتي بالنواب المرضي عنهم والمرغوب فيهم ، ولها ان تصرفهم بموافقة رئيس الدولة متى شاءت ، ولرئيس الدولة ان يصرفها ويصرفهم متى شاء . . . فاذا البرلمان المفروض انه ممثل الشعب ومصدر السلطات والرقيب على الحكومات ، يمسي اداة في ايدي الحكومات بل العوبة تشد خيوطها من وراء الستار لتمثل الرواية على الجمهور . . . وفطن الجمهور الى اللعبة ، واستخف بهذا النظام البرلماني الذي يجعل من نوابه حكاماً من الدرجة الثانية او الثالثة يقتسمون المغانم مع حكام الدرجة الاولى . استخف وضحك باديء الامر ثم قرف وقنط . . .

ولعل هذه البرلمانية المسيخة ، كان من المحتمل ان تستشفي وتنقه وتستقيم ، لو اتيحت لها بيئة صالحة ، لو ان العرب شعروا في اقطارهم ببعض الطمأنينة ولم يظلوا وجهاً لوجه مع مشكلات قومية واقتصادية وسياسية . فبسبب الغربيين دائماً ، رأى العرب انفسهم دويلات شتى ، تنتصب ما بينها الحدود والحواجز ، فتوجد عند ابنائها روحاً من السخط والغيظ والقهر من الناحية

القومية ، وتبتليهم بالضعف والهـــزال في الناحية الاقتصادية والسياسية . ثم ان الغربيين — وقد اعترفوا باستقلال بعض هذه البلدان وسيادتها — تركوا فيها عن طريق معاهدات مفروضة اوتاداً اشد وطـأة وخطراً من اوتاد جحا . وهذه الاوتاد التي من السخف والبطـــل تشبيهها بالمطارات الاميركية مثلاً على الارض البريطانية ، ليس من اقل آثارها انها تحفر في قـلوب المواطنين اخـاديد ملأى بذكريات الماضي ، مـاضي الاستعمار البغيض . وهـذه الاوتاد بالذات ، هي الـتي كانت بمثابة حجر يلقى دائماً في مياه الحياة الداخلية العربية ليعكر صفوها ، ويجعل رواسبها تطفو عـــلى السطح ، فيختصم السياسيون ويقتتلون ويصرفون صرفاً عن ترتيب البيت وتجميله .

وكانت الضربة الاخيرة ، الضربة الساحقة التي سددها الينـا اصدقاؤنا الغربيون ، الضربة التي زعزعت الكيان العربي ، وهدمت ركناً من اركانه ، ركناً كان يقوم وسط الهيكل ، هي إسرائيل . ويظهر انها كانت بمثابة لكمة الاجهاز تنهال على وجه النظام البرلماني المسخ في بعض البلدان العربية . فقـد أحس العرب هنا وهناك وهنالك — بعد فـــترة من الانشداه والغيبوبة اختلفت طولاً وقصراً — ان المهزلة لم تعد مضحكة ولا مثيرة للاشمئزاز فحسب ، بل بدأت تتخـــذ شكل خطر ماحق لا يبقي ولا يذر .

وكان بديهياً ان يكون رد الفعل اشد مـا يكون قوة في البلدين اللذين اصابهما اكبر نصيب من البلاء ، عنيت مصر وسوريا ، حيث هب الجيش فقلب النظام الفاسد ليحل محله نظاماً تطهيرياً يكون جسراً بين الديموقراطية الشوهاء والديموقراطية السليمة . فقادة الجيش في البلدين يؤمنون بالدستور والحياة الدستورية والنظام البرلماني ، ويدركون ان هذا النظام هو النظام الوحيد الذي يكفل الاستقرار والاستمرار لشعب حر دون هزات ومفاجآت لا يستطيع احد ان يتكهن بنتائجها او يأمن السيطرة عليها . لكنهم يريدون ان يقوم هذا النظام على اسس متينة ، ولن ينسى ذلك قبل فترة انتقال — في مصر حـددت بثلاث سنوات — وفي سوريا لم تحدد — ترمم ما تهدم من اخلاق الامة وما تقوض من مؤسساتها ، وتغرس في الارض العربية نبتـــة الديموقراطية الصحيحة التي تعني سيادة الشعب حقاً ، اي سيادة الكفاءة والنزاهة بصرف النظر عن اصل صاحبها ونسبه وماله وطبقته ، الديموقراطية الصحيحة التي ترمي الى خـــير الشعب ورفاهيته ، اي الى خير اكبر قسم ممكن من المواطنين ، لا الى فئة محظوظة تحتكر المغانم بالحـــلال والحرام ، الديموقراطية الصحيحة التي لا تكتفي بمظاهر المناقشة الحرة التي كانت تتحول في البرلمان الى مباريات خطابية ومهاترات حزبية ، وانما تسعى الى ان تجعل من البلد كلاً متماسكا يعمل وينشط ، يتطور وينمو ، في ظل الفضيلة والحرية والقانون .

اما في لبنان والعراق ، فكان رد الفعل اضعف ، لكنه بادرة تحرك على اي حال . فقد ادخلت على قانون الانتخاب في البلدين تعديلات من شأنها ان تخفف وطأة الطبقات العتيقة التي تعودت الاستئثار بالحكم ، وجعلت من السياسة مطية جـــاه ومورد ارتزاق . واستعان العراق بالحكم العسكري فترة قصيرة ، كما استعان لبنان بالمراسيم الاشتراعية لمدة ستة اشهر . وما زالت التجربة البرلمانية قائمة في البلدين تحاول اجتياز امتحانها الاخير .

* * *

لقد عملنا شيئاً في البلدان الاربعة التي تؤلف طليعة البلدان العربية ، ولم تمر محنة فلسطين ككل شر دون ان تجر بعض الخير . لكننا ما زلنا في اول الطريق ، الطريق الشائك الذي يطل على آفاق جميلة . وعلى مبلغ ما نتحلى به من تضحية وصبر وذكاء ، يتوقف اجتثاث الشوك المتكاثف ، فبلوغ المحجة .

اننا لا نذهب مع الخيال ولا نسترسل في الغرور ، فنزعم ان النظم التي انهارت والرجال الذين ذهبوا كانوا كل شيء في اسباب ضعفنا ، واننـا بمجرد انهيار تلك النظم وذهاب اولئك الرجال ، قد انتصرنا على كل مصاعبنا . فالواقع ان علل ضعفنا كثيرة ، فيها الروحي وفيها المادي . لكن ما اقدمنا عليه هو الانتفاضة الاولى نحو التقدم . انه دليل ارادتنا في البقـــاء ، وطموحنا الى حياة افضل . ولسنا ننسى ان فينا نخبة هي اهل لأن تجر العجلة ، شريطة ان تتكاتف وتتساند وتشد في اتجـاه واحد ، ولا يقوم من بينها من يتلفت الى خلف ليدس العصي في الدواليب .

لقد مشى العسكريون في سوريا ومصر فيجب ان يمشي معهم السياسيون ، او على الأقل ان يتركوهم يمشون مادام يمشون في الطريق المستقيم . ويجب ان يتغاضوا عن بعض هناتهم لانهم ليسوا معصومين ، وما دامت هذه الهنات — اذا حدثت — لا تؤلف خطراً على الجوهر . يجب ان تزول هذه العقليـــة التي هيمنت على اكثر سياسيينا ، وهي ان الخير لا يكون خيراً إلا

الأدب : ناقد الدولة !

بقلم رئيف خوري

ويسألونك عن علاقة الادب بالدولة ، كيف يصح ، ان تكون ؟ ويشدّدون في السؤال حتى لقد التمست لهم مثلًا في الحافهم فما وجدت اقرب من ديوجين الاغريقي ، يوم حمل قنديلًا مضاءً في رابعة النهار ، ومضى ضاحكاً متفجعاً يفتش عن انسان في السابلة .

ولست إخالك الا سمعت بديوجين هذا ، وعلمت من امره انه كان ، الى حمله القنديل المضاء ، يتخذ له بيتاً في برميل !

أجل ، ولا احسبك الا ذاكراً يوم اتاه الاسكندر المقدوني ، مشرّفاً له بالزيارة ، ناثراً له آيات الاعجاب ، وديوجين عند برميله منغمس تحت قرص الشمس في فيض من الدفء والضوء .

قال له الاسكندر : الا تعرض عـــلي حاجتك يا ديوجين فاقضيها لك ؟

فنظر ديوجين الى الفاتـــح المنتصب امامه بقامة فارعة ، وخوذة لامعة ، واجابه :

— خلّ بيني وبين الشمس ، تلك حاجتي اليك . لقد قبض عني ظلك النور !

اني ، يا صاحبي ، مـع حفظ الفرق بـين ديوجين الاغريقي وبيني ، ثم بين الاسكندر المقدوني ، وأولياء الأمر — ، كافأهم الله او فليفعل بهم ما وسع عدله ! — اقول للدولة ، بلسان الادب :

— خلي بيني وبـــين الشمس ، تلك حاجتي اليك !

ليس ينتظر الادب في كنف الدولة الا ما ينتظر الزهر اذا قطف من الحقل ليوضع في آنية بين اربعة جدران . فقل لي : كم يعيش الزهر ، اذاً ، قبل ان يذوي ورقه ويغيض رونقه ويذهب عطره وسحره ؟ بـل ما لي أنسيت ان من الزهر ما « يعيش » طويلًا في الآنية ؟ على انه — واأسفاه ! — لا يكون زهراً وانما هو بعض كرتون وقراطيس « وتنك » زوّر بالشكل واللون على الزهر تزويراً .

يصح ، في المصادفات السعيدة ان يتفق للدولة ان تحترم بعض غايات صالحة من الغايات التي يخدمها الادب . وهنا يسوغ ان تقع مهادنة ، لا مسالمة ! ، بين شطر من الادب وجانب من الدولة . ومع ذلك لا يجوز الا ان يبقى الادب قائماً تحت رايته الخاصة ! لا يصح للادب ان ينكس رايتـــه ليسعى تحت راية الدولة ولو نُقشت عـــلى الرايتين ، في وقت من الاوقات ، اذا تحقق على أيديهم هم ، وان من واجبهـــم « القومي » ان يعرقلوا كل مسعى يتحقق على أيدي سواهم ...

ولسنا ننسى اننا في حاجة الى كفاءات فنية والى رؤوس اموال من الخارج ، واننا لا نعيش في هذا العالم على حـدة . فيجب ان نمد ايدينا الى كل هذا ، وان نفتح له صدورنا ، وان نكبت في هذه الصدور كل ما أكنته من حقد وضغينة عـلى الاقوياء الاجانب الذين استثمرونا وعبثوا بنا في الماضي . فليس من سياسة سليمة تبنى على الاحقاد ، وقد ولى زمن العزلة والانطواء .

وتاريخ الامم كتاريخ الافراد ، قد يكون لك خـــير الاصدقاء في من كان ألد الاعداء . زد على ذلك ان صداقتنا لن تكون من طرف واحد ، فهناك أيد تمتد الينا بالصداقة ، وهي ترى في صداقتنا من الخير مثلما نجد في صداقتها . وليس علينا إلا ان نحسن الاختيـار وان نضبط الحسابات ، لان الحسابات المضبوطة كفيلة بديمومة الصداقة .

وقبل الصداقات ، تأتي الاخوة ، هذه الاخوة العربية التي هي حقيقة لا مراء فيها ، لا ننفك ننادي بها في كل ظرف وكل مكان ، لكننا مع الاسف لا ندفع بها في ميدان الانتاج ، ولا نصبُّها في القوالب الكفيلة وحدها بجعلها تؤتي ثمارهـا . ولعل القضاء على بعض الطبقات العتيقة الحاكمة والاتجـــاه صوب الديمقراطية الصحيحة خليق بهما ان يشقّا الطريق نحو بلورة هذه الاخوة في اتحاد فعلي وثيق .

تبقى مشكلة حرية الفكر باوسع معانيها . وهذه لا بد ان تتأثر في ظل نظام آمر Autoritaire مضطر الى حث الخطى . وفي اعتقادنا — مع اعترافنا بان الحياة لا تستحق ان تعاش دون حرية الفكر — انه اذا كان لا بد من بعض القيود في فـــترة انتقالية هي فترة إنقاذ ، فيجب ان نتقبل ذلك برحابـة صدر ، ونذكر انه عندما تكون الحرية ، حرية الوطن كله في خطر ، تصبح حرية الفكر وكل الحريات العامة في كفة ، وحرية الوطن التي هي الاساس في كفة .

محمد النقاش